الملتقى الدولي:" السيرة النبوية في الكتابات الأدبية عند المستشرقين"

يومي 10–11 مارس 2020

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

عنوان المداخلة:

أثر كتاب" الرسول ..حياة محمد" للمستشرق رونالد فيكتور بودلي في كتاب (قصة)عائشة عبد الرحمن أم النبي عليه الصلاة والسلام.

The impact of the book "The Messenger …The Life of Muhammed" by the orientalist Ronald Victor Bodley on the book (story) of Aisha Abd al Rahmane "The mother of the Prophet",peace and blessing be upon him.

أد. ذهبية بورويس

د. نادية توهامي

الملخص

بعيدا عن الأحكام النقدية الجاهزة، لا يختلف الباحثون في أنَّ كتابات المستشرقين تعدّ سياقاً معرفياً أو إبداعياً له تأثيره في إجراء المرجعية التاريخية وصياغة المتخيّل الإبداعي في المعرفة

العقلية والحسية؛ فكتابات المستشرقين من أهم الموضوعات التي نالت جانبا كبيرا من اهتمامات الباحثين والدارسين العرب بشتى توجهاتهم وانتماءاتهم ومناهجهم ومواقفهم ما بين مفتتنٍ بهذه الدراسات ومتشدّدٍ في الحكم عليها، ومن الفريق الجامع بين الموقفين- الدكتورة **عائشة عبد الرحمن** – تبيّن ذلك جليا في مؤلفها القصصي(أم النبي). ففي هذا المصنف أثْرت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بمتخيّل معرفي وإبداعي استقته في أهم عروضها من كتاب المستشرق **رونالد فيكتور بودلي** وفي هذا المقام، نحاول أن نُعزّز الأبعاد غير المثبتة عليها في إثراء السيرة وتوجيه ذلك الأثر.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق / مستشرق / رونالد فيكتور بودلي / سيرة نبي الإسلام.

Summary :

Apart from the ready-made critical judgments, the researchers agree that the writings of orientalists are a cognitive or a creative context that has an impact on conducting historical reference, as well as formulating the creative imagination in mental and sensory knowledge. The writing of the orientalists are among the most important topics that have gained a great interest from Arab researchers and scholars of various orientations, affiliations, approaches, and positions, including those who are fascinated by these studies, and those who are strict in judging them. One of those who support both positions is Doctor Aisha Abdal Rahmane, who indicates this obviously in her narrative writing "The mother of the Prophet". In this book, the biography of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, has been enriched in her most important statement by an epistemological and creative imagination

derived from the book of the orientalist Ronald Victor Bodley. In this regard, we try to strengthen the unproven dimensions in enriching the biography and guiding that impact.

Keywords: Orientalism/ orientalist, Ronald Victor Bodley / Biography of the Prophet of Islam

مقدمة:

على الرغم من صعوبة تحديد بداية الاستشراق ([1]) إلا أنّ بعض المؤرخين يعودون به إلى الدولة الإسلامية في الأندلس، ومنهم من يرجعه إلى القرن الثاني الهجري، ومنهم من يعود به إلى أيام الصليبين، لكن الأهم من ذلك أنّ حركة الاستشراق لم تظهر اعتباطا أو صدفة أو فضولاً، فقد تبيّن لمتتبعي الحركة الاستشراقية، أنّ الهدف الأساس الأول للمشتغلين فيه من الغربيين هو إنكار رسالة الإسلام، والتكذيب على رسول صلى الله عليه وسلم، وإثارة الشبهات حول الإسلام، وحول القرآن الكريم ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم لإرباك المسلمين ومحاولة ردهم عنه بمختلف الوسائل؛ حيث أوردوا بعض مزايا الإسلام لكنّهم في الوقت نفسه أضافوا إليها ألواناً شتى من التجريح والطعن، وفي اعتقادهم أنّ المسلمين ينخدعون بما يكتبونه، فيصدقون كثيراً أو قليلاً مما يفترونه على الإسلام وأهله.([2]) ولكن

---

[1]- **الاستشراق** : هو علم يدرس لغات الشرق وتراثه وحضارته ومجتمعاته وماضيه وحاضره ، وبعبارة أخرى أدق وأشمل، هو دراسة غير الشرقيين لحضارات الشرق وأديانه ولغاته وتاريخه وعلومه واتجاهاته النفسية وأحواله الاجتماعية، وبخاصة حضارة الإسلام، وأحوال المسلمين في مختلف العصور .ينظر: أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، (القاهرة، دار النهضة، د.ت)، ص512 وعرفان عبد الحميد، دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، (عمان، دار عمار،1991)، ص7 .

[2]- ينظر: عصام فخري برتو، الرسول في كتابات المستشرقين(دراسات استشراقية)، ع05، 2015م ص44.

هذا الحكم لا ينسحب على كلّ المستشرقين؛ فهناك من استطاع أن ينصف الإسلام ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام؛ ولم يجد بدّاً من تتبع سيرته وإضفاء كثير من المزايا والخصائص والتفرد عليها.

الاستشراق البريطاني:

بدأت الدراسات الاستشراقية في بريطانيا منذ وقت مبكر، فكان هناك عدد كبير من علماء القرون الوسطى الذين عنوا بدراسة اللغة العربية وآدابها.([1])

تميّزت هذه الدراسات الأولى بعدم علميتها، إذ كانت تسعى إلى التبشير بالدرجة الأولى لذلك أساءت إلى تاريخ العرب والمسلمين وحضارتهم([2]) فظهر التاريخ الإسلامي في كتابات المستشرقين في تلك الحقبة الزمنية مشوها، بعد أن فسّرها المستشرقون تفسيرا خاطئاً.([3])

ومع ازدياد أطماع بريطانيا في الشرق العربي، ازدادت عنايتها بالتراث العربي الإسلامي، حتى ربط بعضهم بين الاستشراق والاستعمار، فعدّوا الاستشراق البريطاني أداة كبيرة للاستعمار، وأنّه أسهم في الفرقة بين العرب من خلال تركيزه على نشر الدراسات الطائفية

---

[1]- سعدون الساموك ، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية،(عمان، دار المناهج،1431هـ-2010م)، ط1، ص106.

[2]- المرجع نفسه، ص106.

[3]- ينظر: محسن راشد طريم، الجوانب المظلمة في كتابات المستشرقين البريطانين في السيرة النبوية، مجلة جامعة ذي قار، ع2، المجلد 4، أيلول 2008م، ص115.

وتشويه تاريخ العرب المسلمين([1]). كما لا يمكن أن ننكر في الوقت نفسه ماكان للمستشرقين من المبادرة والريادة في تناول دراسة تاريخنا وحضارتنا بالتحقيق والشرح والتأليف.([2])

وأكثر ما تناوله المستشرقون في كتاباتهم هو شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته الكريمة، وتتبع كلّ تفاصيلها فوصل بهم الأمر إلى التشكيك في اسمه ولو تمكنوا لعملوا على إثارة الشكوك حول وجوده وحقيقته. وهذا ما دفعهم إلى الاستدلال بكلّ ما هو شاذ وغريب من الأخبار مما كان مردوداً بالتحقيق من قبل العلماء المسلمين([3]) وله علاقة في إلحاق الشبهات والأكاذيب بسيرته التي تجاوزت الأماكن والمراحل، واستشرفت الوقائع والأحداث وآلفت بين الأعراق والأجناس ممّا لم يرض أصحاب الديانات المتعصبة الأخرى؛ ولذلك كان جزءا كبيرا من الاستشراق البريطاني يسعى إلى تتبع تفاصيل حياته وسيرته، رغبة في التخطيط لمآرب دينية وسياسية ومذهبية تلبي مطالبهم وأغراضهم في التضييق على الإسلام والمسلمين.

أما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، بدأت تظهر على كتابات المستشرقين البريطانيين سمات مختلفة نسبيا عن كتابات القرون السابقة، إذ دفعت أسبابٌ منهجية ومعرفية مجموعة من المستشرقين إلى دراسات فيها كثير من الإنصاف؛ فاعتدوا بالسيرة ورسّخوا.. خصوصياتها الدينية والإنسانية بانفتاحها على الأزمنة والأمكنة وعلى الحقول المعرفية في تخصصاتها المرجعية الدينية والسياسية.([4]) فظهرت المؤلفات البريطانية التي درست التاريخ الإسلامي بشكل مقبول ومنصف لاسيما في مجال دراسة السيرة النبوية التي تفوّقت

---

[1]- سعدون الساموك، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، ص106.

[2]- ينظر: جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام (بغداد، 1963م)، ص 9.

[3]- عائشة عبد الرحمن ، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية، 1968م).ص60.

[4]- ينظر: الغزال، مشتاق بشير حمود، تطور الاستشراق البريطاني كتابة السير النبوية الشريفة، رسالة ماجستير(غير منشور)، كلية التربية، جامعة بغداد، 2001م، ص63-65.

بأدلتها ودلائلها على مناهجهم وموضوعيتهم إذ لم يجدوا عن طريقها إلا أن يعترفوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وعظمة شخصيته وتاريخه ومواقفه الأخلاقية.([1])

ومما ساعد على نمو هذه الدراسات الاستشراقية وازدهارها في بريطانيا: تكوينُ الجمعيات والمجلات المتخصصة، وظهور عددٍ من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية؛ مثل" إدوارد وليم لين1876 - 1801 "، صاحب كتاب: "في أخلاق وعادات المصريين الحديثين"([2]) وهو من أهم مستشرقي إنجلترا وأوروبا في القرن التاسع عشر، وقد ترجم أيضًا: ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية بدقَّة؛ هذا الكتاب الذي انفتح به العرب بانبهار على روح الشرف وحضارتها وعصورها.

أما" نيكلسون" فيعتبر حجَّة في التصوف الإسلامي، وكذلك "توماس كارلايل"صاحب كتاب :"الأبطال وعبادة الأبطال"، وقد وضع فيه النبيَّ الكريم – صلى الله عليه وسلم – في قمة الأبطال الذين غيَّروا مجرى التاريخ ([3]).

هذا وقد بلغتِ الدراسات العربية في السنوات الأولى من القرن العشرين مرحلةً متقدِّمة، وأنشِئتْ في جامعة لندن كليةٌ جديدة، خصِّصت لدراسة اللغات الشرقية، وتبوَّأ Sir Thomas Walker Arnoldالسير توماس أرنولد1864) م – 1930م) أول كرسيّ للأستاذية في قسم الدراسات العربية والإسلامية، وله عدّة مؤلفات بجانب كتابه: "الدعوة إلى الإسلام"، ومنها :"الخلافة"، وكتاب حول العقيدة الإسلامية، وشارك في تحرير كتاب: "تراث الإسلام "في طبعته الأولى، بالإضافة إلى العديد من البحوث في الفنون الإسلامية.([4]).

---

[1]- ينظر: محسن راشد طريم، الجوانب المظلمة في كتابات المستشرقين البريطانين في السيرة النبوية، ص116.

[2]- سهيل قاشا: الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، ج2 بغداد 1987 ، ص 20.

[3]- ينظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، (دار المعارف، مصر،1964م)ط3، ج2، ص481، ص525.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ج2، ص504.

وأما المستشرق الكولونيل **رونالد بودلي** فقد دفعته تجربته العسكرية وحسّه الميداني والاجتماعي والإنساني في السنوات السبع التي قضاها مع بدو الصحراء إلى مخالطتهم عن كثب ويمزج أحاسيسه اليومية بأحاسيسهم؛ حيث يقول: "في عام 1918 أدرت ظهري نحو العالم الذي عرفته واتجهت إلى شمال غرب أفريقيا وعشت مع العرب في الصحراء، عشت هناك سبع سنوات؛ تعلمت أن أتحدث بلغة البدو وارتديت زيهم وأكلت طعامهم وتبنيت أسلوبهم في الحياة الذي تغيّر قليلا خلال العشرين قرنا الماضية، أصبحتُ مالك أغنام، ونمت على الأرض في خيم العرب؛ كما قمت بدراسة مفصلة لدينهم، في الحقيقة كتبت كتابا عن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم عنوانه" الرسول...حياة محمد.([1])"

التعريف بكتاب "الرسول حياة محمد" لبودلي:

عندما عاد بودلي([2]) من الصحراء، انقطع للدراسة والكتابة بصفة خاصة عن المنطقة التي

---

[1]- ر. ف. س. بودلي؛ كتاب الرسول: حياة محمد؛ ترجمة: محمد محمد فرج و عبد الحميد جودة السحار؛ دار الكتاب العربي – مصر؛ ط1، 1945؛ ص: 05

[2]- الكولونيل رونالد فيكتور كورتيناي **بودلي**؛ مستشرق بريطاني .R.V.C BODLLY التحق بالجيش البريطاني عام 1908م، وتدرج في رتبه إلى أن وصل إلى رتبة كولونيل، عمل في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، ثم في شرقي الأردن عام 1922م، ثم مستشارا لسلطنة مسقط عام 1924م. قضى بودلي سبع سنوات مع بدو الصحراء،حيث خالط الرحل وعاش معهم وتكلم لغتهم، وتدين بالإسلام وأقام الشعائر الإسلامية معهم، وكان البدو في أول الأمر يشكون فيه؛ لكنه استطاع أن يقنعهم أن نيته خالصة.

وقد أصدر بودلي كتابا بعنوان "الرياح على الصحراء (Wind in the Sahara) "عام 1944، حيث تناول تجربته في الصحراء، وفيه يحكي عن أقوى الإنطباعات التي خلفتها تجربته مع البدو العرب المتثملة في علاقة البدو بالله فالله معهم يذكرونه ويتعلقون به في كل شؤون النهار والليل ومعاش اليوم والغد: في مأكلهم، ومشربهم، وتجارتهم، ومعاشراتهم

عاش فيها، أهم ما ألفه: كتاب "الرسول، حياة محمد"، وهو موضوع الدراسة التي بين أيدينا، وعنوان الكتاب بالإنجليزية" The Messenger: The Life of Mohammed) وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية محمد محمد فرج، وعبد الحميد جودة السحار، عام 1945م، في تسع وثلاثين وأربع مائة صفحة مع مقدمتين، وطبعته الإنجليزية في خمس وخمسين وثلاث مائة صفحة، ويتكون من أربعة وعشرين فصلاً، وخاتمة.

صرّح **بودلي** نفسه في كتابه " وقد تراكمت معلوماتي عن محمد على مرّ الشهور والسنين، ولم يكن هذا نتيجة دراسة متبصرة، فإني لا أعتقد ذلك، ففي خلال هذه الفترة جميعها التي عشتها في الصحراء لم أقرأ أية كلمة مطبوعة عن رسول الله، ما عدا القرآن؛ ولقد حصلت على معلوماتي من مناقشاتي حول نيران العسكر، وفي خلال رحلاتي الطويلة مع القوافل، وبينما كنت أرقب القطعان في الليل"([1]).

والكتاب يتناول حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ مولده وحتى وفاته؛ وقد ظهر من خلاله انبهار المؤلف بشخصية الرسول، وإعجابه بحسن تصرفه وتغلبه على أصعب العقبات.

العاطفية؛ الله هو الذي يشغل فكرهم في كلّ ساعة، وهو الأقرب إليهم من أي شيء أو أي أحد آخر، وكل هذا بشكل يستحيل تكراره عند من يفصلهم عن ربهم وسائط كالطقوس المرسومة في أداء الشعائر. ينظر: مهدي رزق الله أحمد مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات، بودلي في كتابه "الرسول حياة محمد" دراسة نقدية، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ص01

[1]- بودلي؛ كتاب الرسول: حياة محمد؛ ص: 06.

يقول **بودلي**: "كتبت هذا الكتاب لمن يرغبون في معرفة شيء عن محمد والإسلام من الغربيين، أكثر مما كتبته للشرقيين؛ وقد بذلت عناية خاصة في المحافظة على دقة الحقائق ."([1])

ينتقد **بودلي** كتابات المستشرقين في السنة النبوية فيقول: جميع هذه السير أخفقت في عرض الموضوع من جميع الزوايا- فهي ناقصة غير مكتملة؛ ومحاولتي هي عرض الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان. . .

كانت رغباته يسيرة، فكان الزهد فيها أمراً ميسوراً ؛ ولكنّه كان رجل دنيا أيضاً ؛ وما كانت دنيا الماضي السحيق، فقد أحب كما أحببنا، وكان له أولاد، وكان فارساً لا يشق له غبار، وكان يخصف نعله، ويرقع ثيابه؛ وكانت فيه دعابة حسنة ؛ وكان يعرف في نفسه أنّه قائد، ولكنه ما كان محباً للمظاهر ؛ ولم يحاول أبداً أن يؤسس شيئاً يشابه البلاط، ولم يسمح لأحد أن يعتقد أنّ له صفات إلهية أو خارقة للطبيعة. ([2])

كما ذكر **بودلي** في الخاتمة شيئًا يسيراً عن سير الخلفاء الراشدين، وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم وسراريه، وشرح بعض الكلمات الواردة في كتابه، مثل كلمة عبد وأبو وآل وأمير وحج.. إلخ.

وذكر في نهاية كتابة المراجع التي اعتمد عليها، وليس فيها من المراجع العربية سوى ثلاث ترجمات لمعاني القرآن الكريم، بأيدي مستشرقين.([3])

قام الأستاذ الدكتور مهدي رزق الله أحمد أستاذ الدارسات الإسلامية بقسم الثقافة الإسلامية، بعمل قراءة نقدية لكتاب **بودلي** مع بيان أخطر ما وقع فيه المستشرق "**بودلي**" من أخطاء والرد عليها، وجاء هذا الرد في مقدمة ثم تلا ذكر تعقيبه على خمسين خطأ إجمالي

---

[1]- المصدر نفسه، ص09

[2]- المصدر نفسه، ص14 وما بعدها

[3]- المصدر نفسه، ص409 ومابعدها

وقع فيه **بودلي**، ثم خاتمة ذكر فيها الكاتب خلاصة ما توصل إليه في هذا البحث.([1]) وما سمّاه مهدي رزق الله أحمد أخطاءً هي أحكام متوقعة ممن لم يؤمن بالقرآن الكريم وحياً وقراءةً وبالسنة النبوية تفسيراً...

أهداف الكتاب:

أشار المؤلف- صاحب الرد- في مقدمة كتابه أنّ الأهداف السياسية هي التي جاءت ببودلي ليعيش مع بدو صحراء الحجاز، ليقدم لبلاده المعلومات الاستخباراتية التي تريدها؛ ليرسم سياستها الاستعمارية في هذه المنطقة الاستراتيجية، والدليل على ذلك أنّ كتابات **بودلي** لا تحمل الطابع العلمي في أدنى مستوياته، والذي يلاحظ في كتابات المستشرقين الذين استقى منهم معلوماته عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبقائه تلك المدة الطويلة في البادية- سبع سنوات، لأنّ من يريد أن يكتب عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لا يحتاج إلى البقاء في مهد الإسلام هذه المدة، بل يحتاج إلى قضاء نحو خمس هذه المدة فقط، وقضاء أربعة الأخماس الباقية في المكتبات، حيث مصادر السيرة النبوة الصحيحة.([2])

تأثرت عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) بكتاب بودلي واقتنت من ترجمته بالعربية عبارات وفقرات كاملة، أكملت بها بناءها الفني في قصتها أو كتابها أم النبي مما سنقف عليه لاحقا.

التعريف بكتاب أم النبي لعائشة عبد الرحمن:

كانت شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما زالت موضع عناية الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة المتجددة والمنهجية المنفتحة على كلّ المعارف والأماكن والأزمنة، فراحوا يلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة

---

[1]- مهدي رزق الله أحمد، مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه "الرسول حياة محمد" دراسة نقدية، ص04

[2]- المرجع نفسه، ص05

الإنسانية كما تمثلت في بشر رسول، بهر الدنيا وصنع التاريخ، وإنّه ليأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. ذلك أنّ الإنسانية على كثرة من عرفت في تاريخها الطويل من رسل وأنبياء، وقادة وأبطال، ستظل أبد الدهر ترنو إلى هذا النبي العربي الذي اصطفاه الله تعالى بشرا رسولا، فكانت هذه البشرية آية عظمته، بقدر ماهي تكريم للبشرية.

تقول عائشة عبد الرحمن ([1]) بأنّ هذا الإيمان العميق بعظمة البشر الرسول، هو الذي وجّه دراستها للجوانب التي اختارتها من شخصيته الفذة؛ فكان منها كتاب" أم النبي" محاولة لفهم جانب النبوة في الوليد اليتيم الذي وضعته امرأة من قريش تأكل القديد([2])، كما تضع كلُّ أنثى من البشر، ليكون بعد أن يبلغ أشده، المصطفى المبعوث بآخر رسالات الدين."([3])

كما أوضحت الكاتبة في المقدمة أنّ كتابها ليس تحقيقا تاريخيا .. بل هو عمل فني أدبي .. يمكن أن يعتمد أحيانا على مايسميه بعضهم أساطير وروايات بها ظل الخيال وطابع الوضع ، وأوضحت بهوامش الكتاب آراء أخرى غير التى ذكرتها من خلال مصادر أخر([4])

على الرغم من صغر حجم الكتاب إلا أنّه مكتوب وفقا للمنهج العلمي، فالكاتبة صدّرت الكتاب بمبحث يتناول موضوع سيرة أم النبي التي تطرحها في كتابها، ثم مصادر هذه السيرة،

---

[1]- هي عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ؛ مفكرة وكاتبة مصرية، وأستاذة جامعية وباحثة، وهي أول امرأة تحاضر بالأزهر الشريف، تركت وراءها أكثر من أربعين كتابا في الدراسات الفقهية والإسلامية والأدبية والتاريخية، وأبرز مؤلفاتها هي: التفسير البياني للقرآن الكريم، وتراجم سيدات بيت النبوة، ولها أعمال أدبية وروائية أشهرها: على الجسر.. سيرة ذاتية، وكتاب "بطلة كربلاء ومن مؤلفاتها أيضا سكينة بنت الحسين، مع المصطفى، نساء النبي، أم الرسول محمد..آمنة بنت وهب، أعداء البشر، أرض المعجزات..رحلة في جزيرة العرب.ينظر: الجسر بين الحياة والمؤت، عائشة عبد الرحمن، ص 23 وما بعدها

[2]- أتى النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ ، فَكَلَّمَهُ، فجَعلَ ترعدُ فرائصُهُ، فقالَ لَهُ: هوِّن عليكَ، فإنِّي لستُ بملِكٍ، إنَّما أَنا ابنُ امرأةٍ تأكُلُ القَديدَ ...الراوي :أبو مسعود عقبة بن عمرو | المحدث : الألباني | المصدر :صحيح ابن ماجه...الصفحة أو الرقم | 2693 :خلاصة حكم المحدث :صحيح...التخريج : أخرجه ابن ماجه (3312)

[3]- عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، المقدمة، ط1، دار الريان، 1407هـ- 1987م، القاهرة، ص9

[4]- المصدر نفسه، ص9

ثم عرض قصير يسير لدور الأم في حياة الأنبياء الآخرين، مثل السيدة هاجر وأم موسى والسيدة العذراء. ثم تنتقل في المبحث الثاني إلى دراسة البيئة التي تدور فيها أحداث سيرة أم النبي، ما بين البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية، وفي المبحث الثالث تتناول ظروف زواج آمنة، أم النبي، من والده، لتنتقل في المبحث الرابع إلى ظروف ترمل الزوجة الشابة، وفي المبحث الخامس تتناول علاقتها القصيرة زمنيًا مع ابنها اليتيم الذي أراد له أن يكون آخر من يحمل رسالته إلى بني آدم، لتنتقل إلى الحديث عن ظروف وفاتها في المبحث السادس، قبل أن تفرد المبحث السابع والأخير لوفاتها وخلودها؛ ترجم هذا الكتاب إلى الأندونيسية والأردية والتركية. وقد قسمت الكتاب إلى عدة أقسام وهي:

مناجاة

1- سيدة الأمهات

2- بيئة ووراثة

3- زهرة قريش

4- العروس الأرملة

5- أم اليتيم

6- الرحيل

7- الخالدة

1- بين عنواني الكتاب (أم الرسول) و(أم النبي) لعائشة عبد الرحمن:

هذا الكتاب أو بالأحرى هذه القصة([1]) مرّت على عنوانين العنوان الأول في طبعته الأولى هو أم الرسول ... ثم بعد التنقيح والزيادة أصبح العنوان أم النبي عليه الصلاة والسلام، ونعتقد أن عائشة عبد الرحمن أخضعت العنوان الأول للنظر في مصادر المادة ونقدها([2]) فعدلت عنه ليكون أم النبي فالنبوة بدلائلها سبقت الرسالة ودلائل هذه النبوة مبثوثة في كتب السيرة عند العرب، دون خلاف فيها وهي مجموعة في شرف النسب ونقاء العرق وفي توقيت زواج والده بأمه وفي رؤى أمه وأحلامها وفي يوم مولده عليه الصلاة والسلام وفي يتمه، ثم بعد

---

[1]- التوزيع الذي لجأت إليه عائشة عبد الرحمن في صياغة سيرة أم النبي هو توزيع ينسجم مع التأليف البحثي المفصل وفق مباحث سبعة .....أما مقدمة الكتاب الموسومة (مناجاة) وما جاء فيها وما في أعطاف مباحث الكتاب هو سرد امتزج فيه الخبر التاريخي بالتفاصيل المتخيلة والتي في معظمها لم تناقض دليل الرواية وصحة الخبر .

[2]- لعل هذا العنوان الثاني جاء ردا ذكيا على كتاب بودلي " الرسول.. حياة محمد) وكتاب محمد لمحمد حسين هيكل الموسوم (حياة محمد)؛ فالعنوان الأول انتزع بمنطلق المنهج الموضوعي والذاتي من الرسول عليه الصلاة والسلام صفة النبوة والعنوان الثاني انتزع منه صفة النبوة والرسالة (التهميش) ينظر: بودلي، حياة الرسول، ص 07، وينظر: مقدمة كتاب حياة محمد، محمد حسين هيكل، ط14، دار المعارف، مصر، القاهرة.

ذلك في الوحي الأعظم الذي أُنزل عليه؛ وهو القرآن الكريم الذي فسّرت به كلّ الدلائل السابقة بالعبرة والموعظة والتغيير الإنساني الشامل.

قال أبو الحسن الندوي:" إنّ أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أنّ العلم الذي ينشرونه بين الناس، والعقيدة التي يدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أم تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لا شيء من ذلك، إنّما مصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ويكرمون بها..."([1])

2- القصة السيرة:

استهلت عائشة عبد الرحمن مؤلفها بتقديمٍ، هو مناجاة خاطبت فيها أم الرسول آمنة بنت وهب فرفعت نداءً نحسبه لا يخصها وحدها فهو نداء كلّ مسلم يشعر فيه بالانتماء وبالحماية وبالقوة وبالبقاء؛ تقول بنت الشاطئ وهي تناجي السيدة الأم العظيمة:

أماه " آمنة "...

ما تلوت من وحي السماء إلى وحيدك الحبيب، حديثه الجهير عن بشريته:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... ﴾ سورة الكهف الآية110.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ سورة الإسراء: الآية 93

[1]- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، دار التقوى، القاهرة، 1440هـ-2019م،ص40.

إلا ذكرت أنّ نبينا الكريم، هو الإنسان الذي حملته جنينا في أحشائك، ووضعته كما تضع كلّ أنثى من البشر...([1]).

لقد أنهت بنت الشاطئ كثيراً من عباراتها بثلاث نقاط، جعلتها مفتوحة على مزيج من المشاعر الحية والصادقة فيها كثير من التقدير والاستغاثة والاحتماء والتواضع والخشوع والخلود وكلّ الأوصاف الحية غير المنتهية مجتمعة في قولها:" فأي شعور غامر كان يملأ ولدك، حين قال لمن سأله عن أحق الناس بإكرامه: أمك...ثم أمك ثم أمك ، ثم ...أباك؟"([2]) هي منزلة أمه وكلّ أم أنجبت فضحّت وبذلت وصدقت في أحاسيسها بقدر ما صدقت في مخاضها وآلامها وأحلامها؛ وهي قيمة مطلقة آمن بها الرسول عليه الصلاة والسلام بشعوره الفطري والإنساني والمرحلي والأخلاقي والاجتماعي.

لقد جُمع فضلُ آمنة في شرف حواء عبر الأجيال([3]):

تَتبَاهَى بِكَ العُصُورُ وتَسْمُو بِكَ عَلياءُ بَعْدَها عَلْيَاءُ.

فَهَنِيئاً بِهِ لِآمِنَةَ الفَضْـ.. ـلُ الذِي شُرِّفَتْ به حَوَّاءُ

صرّحت عائشة عبد الرحمن بطريقة عرضها لسيرة النبي التي انعطفت بها منعطفا سرديا أدبيا دون أن تتخلص من الوقائع التاريخية والأخبار الجزئية في كتب السيرة التي تجعلها مطمئنة في حال تجاوزها لحرفية الخبر تقول:" ولو كنّا هنا نعرض حياة " آمنة " عرضا تاريخيا بحتاً لكان

---

[1]- عائشة عبد الرحمن، أم النبي عليه الصلاة والسلام، ص7.

[2]- هذا الحديث هو حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ –يعني: صحبتي، قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"... أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، (4/ 1974)، برقم: (2548). ينظر: المصدر نفسه، ص8.

[3]- الإمام أبي عبد الله محمد بن سعيد ابن حماد البوصيري(607-696هـ)، أم القرى في صرح خير الورى " القصيدة الهمزية"، تحقيق وتعليق فضيلة العلامة محمد الشادلي النيفر، إصدار واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم- فلسطين، ص12-13.

فرضا علينا الوقوف لتوثيق هذه المرويات ومقابلة أسانيدها والتماس موضع رجالها عند أئمة النقاد ...أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا أدبيا فنيا، فحسبنا أن نطمئن إليها، ونرى فيها حقيقة الصورة التي تمثلها القوم للأم التي ولدت بطلنا العظيم...([1])

3- مركزية الأمومة في السيرة:

أوجدت عائشة عبد الرحمن سياقا متشابها وجامعا بين أمهات الأنبياء الأربعة دون غيرهم وهم إسماعيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وهي في ذلك تكرس فكرة دلائل نبوة هؤلاء والحكمة منها حيث تقول:" لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنّهم – عليهم السلام – قد عُهد بهم في طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء، فلم تقم الأم بدورها الطبيعي فقط، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه...ويبدو أن جزءاً ضئيلا من هذه الفكرة كان قد عبر عنها بودلي في قوله عن الرسول عليه الصلاة والسلام:" وما كان لمحمد في الوجود من شيء إلا أمه، وبعض أبل، وماعز والجارية المخلصة التي تركها له أبوه..... وحتى أمه لم تكن بذات فائدة له فقد جف لبنها لما أصابها من حزن لموت زوجها"([2]) والظاهر أن تعسف **بودلي** في وصف أم النبي فنزع عنها إحساسها الفطري ؛ وكلّ وصف يمكن أن يميز شخصها لأنها أم النبي فبدت صورتها في سرده باهتة غير نافعة لطفولة الرسول صلى الله عيله وسلم، وحينما أراد أن يصف وجودها في حياته الأولى لم يسبغ عليها قيمة أو أثرا بالقدر الذي وصف فيه الجارية بالإخلاص؛ فتجاوز **بودلي** بذلك الحس الفطري للأمومة الذي لا يقف عند المنافع المادية والبيولوجية.

و يمكن القول هنا أن بودلي أخفق في تصوير شخصية أم النبي بما كان سيجيب عن كثير من أحكامه وآرائه ليدرك حكمة إرساله إلى بادية بني سعد؛ أما بنت الشاطئ فاستطاعت أن

---

[1]- عائشة عبد الرحمن، أم النبي عليه الصلاة والسلام ، ص90.

[2]- المصدر نفسه، ص41

تستدعي شخصية أم النبي بحس فني ومتخيل إبداعي، لتصنع بهما الوقائع التي كان القارئ ينتظرها دون غياب الأمانة وصدق القول، فكانت أم النبي في سرد سيرتها ماثلة أمام أعيننا بمشاعرها؛ نراها بقلوبنا ونتحسس ملامحها بأعيننا؛ فلم تَجُرْ على سيرتها وما نقل عنها، ولم تجعلنا نستغرب مفارقة آمنة لوليدها فبادية بني سعد كان أول مكان نظيف يألفه الوليد الرضيع، وينفتح به على العالم المحسوس ليتسع شيئا فشيئا منفتحا على العوالم الأخرى، وهنا نسجل لبنت الشاطيء حضور إحساسها وصدقها في تتبع أخبار أم النبي وسيرتها دون تعسف أو مزايدة وهذا يتوقع منها لما استهلت كتابها بما سمته في المقدمة **بالمناجاة** ذاك الخطاب الذي يخصنا جميعا جعل آمنة بنت وهب بعبارة ...آماه... التي تصدرت تلك المناجاة وتكررت فيها رمزا للأمومة المطلقة التي شكلت مركز ثقل في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي حياة كل مسلم صادق.

"غير أنا نرى الأمر طبيعياً، لا غرابة فيه ولا مصادقة ولا اتفاق... إذ الأمومة في عاطفتها السخية وإيثارها الباذل، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية المصطفون لهداية البشرية"([1]). ولسنا نبالغ إذا قلنا إنّ إرسال النبي محمد إلى بادية بني سعد كان مطلبا حكيما ينطوي على عامل من عوامل النبوة والموقف هنا لا يختلف عن موقف أم إسماعيل هاجر التي تكبدت مشقة البحث عن الماء في الوادي الأجرد؛ فلما كان الماء ارتوى الوليد وارتوى المكان؛ فدبت فيهما الحياة. كذلك تكبدت آمنة مشقة البحث عن مرضعة لوليدها؛ فلما كانت المرضعة ارتوت فطرة الرسول وارتوى المكان بهذه الفطرة، لتكون لحظة انبعاث حياة جديدة في كلّ البقاع.

[1]- المصدر نفسه، ص33.

فالفطرة" كانت من أسرار سعة انتشار الإسلام" وسرعة تقبل الناس له، إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية فإنه يظل نزّاعا إلى استجابة الفطرة لديه ....والإسلام هو الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية."[1]

أ-أثر السياق المنهجي والفني عند بودلي في قصة أم النبي لعائشة عبد الرحمن:

في المبحث الأول الموسوم سيدة الأمهات وفي المطلب الثالث منه الموسوم أمهات الأنبياء عليهم السلام؛ استرسلت عائشة عبد الرحمن في سرد قصصي لأجزاء من سير أمهات الأنبياء الأربعة فبدأت في تصدير سرد قصة هاجر مع ابنها إسماعيل بالمصدر الأصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في قوله تعالى على لسان إبراهيم﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ سورة إبراهيم الآية37" وحينما أرادت أن تواصل في سردها وتفاصيلها ارتكزت على ما جاء في التوراة وانساقت بمخيلتها في عرض الأحداث قائلة في الفقرة الأولى من سردها إنّ"(التوراة) تروي لنا قصة هاجر أم إسماعيل في تفصيل مسهب، والقرآن الكريم يشير إليها في مواضع شتى، على المعهود من بيانه المعجز، في التركيز على جوهر الموقف ومناط العظة والاعتبار، دون تعلق بالتفصيلات الجزئية. لقد آثر الله تعالى هذه الأم برعاية إسماعيل " الوليد وإنقاذه من الهلاك، إذ تركهما أبوه إبراهيم بواد قفر غير ذي زرع، فكانت لهفتها على الصغير والألم الذي ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ، ومسعاها المثير في سبيل نجاته، حديث التاريخ وعبرة الدهر، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس ألامها إلى حيث تغدو عبادة ودينا."([2])

---

[1]- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، ط 1979، ص153.

[2]- المصدر نفسه، ص34.

واللافت للنظر أنّ التفاصيل التي أوردتها عائشة عبد الرحمن هي نفسها تقريبا التفاصيل التي أوردها المستشرق **بودلي** حين تحدث عن مهبط الوحي وبداية تأسيس هذا المكان قائلا: "... فلقد هامت هاجر على وجهها في الصحراء حتى بلغت وادي مكة الصخري، وهاجمها عطش قاتل أخذت تهرول هنا وهناك تبحث عن ماء؛ فلما نال منها الجهد وأشرفت على الموت عطشا، ارتمت فوق الرمال العادية وقد تركت ابنها تحت شجرة شط شائكة، وجعلت تذرف الدمع..... ثم قالت: " لا أنظر موت الولد " وقبل أن ينفذ ما كان ...وفي أعطاف هذه التفاصيل تجلى المتخيل الإبداعي والأدبي في سرد ما لم يكن مرويا بالأثر والخبر عند عائشة عبد الرحمن واصفة موقف أم إسماعيل وهي تترقب مفجوعة موت ولدها من الظمأ فتقول: "وأمسك الكون أنفاسه، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه، يتردد صداهما في البلقع القفر، مختلطا بعواء وحوش الفلاة، وسُعار السباع الجائعة المحومة على المكان ...كأنها ترقب الخفقة الأخيرة في فريستها المنتظرة.. ثم كانت النجاة..

حوّم طائر على المكان ثم حط على بقعة هناك، حتى انبثق ماء " زمزم " فهرعت هاجر نحوها وهي تحس موجة دافقة من القوة والحيوية قد سرت في كيانها وأقبلت ترتوي وتسقي ولدها...ودبت الحياة في الوادي الأجرد..."([1]).

وهذه التفاصيل التي امتزجت بأحاسيس الكاتبة ليهتز لها كلّ إنسان يؤمن بما جاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم عن قيمة هذا المكان الأجرد وحكمته بما يفسر كثيرا مما خفي في التأسيس لهذا المكان الذي دبت فيه الحياة فجأة لتنبعث منه القيم الروحية وهي قيم الإسلام وتعاليمه؛ وفي هذا المكان تروي عائشة عبد الرحمن قصة هاجر لتنتقل في الأخير إلى رواية قصة أم النبي آمنة بنت وهب مُحتفية بسيرتها وكأن هذه السيرة غير منفصلة عن سيرة أم إسماعيل هاجر فالمكان واحد وهو المنطلق والمكان واحد وهو المنتهى (مكة المكرمة) ﴿وَجَعَلْنَا

[1]- المصدر نفسه، ص37.

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.الأنبياء الأية 30). فطلبُ الماء كان تأسيسا وحضوراً للمكان كما كان طلب المرضعة للرسول عليه الصلاة والسلام هو طلب للفطرة. الفطرة الجامعة بين البشر وهذا ما قاله رمضان سعيد البوطي:" إنّ في الدين دلالة رمزية على أن الإسلام هودين الفطرة، أي الدين الذي ينسحم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصلية، فليس الإسلام شيء مما يتعاض والطبيعة الأصلية، كانت جسما ذا طول وأبعاد، لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره".([1])

تقول عائشة عبد الرحمن في سرد سيرة أم النبي:" وتأتي آمنة بنت وهب في ختام هذا الموكب اللهيب لأمهات الأنبياء لتكون أم اليتيم المصطفى خاتم الرسل عليهم السلام المبعوث بآخر رسالات السماء"([2]).

سلكت عائشة عبد الرحمن مسلكا قصصيا يروي أحداثا وتفاصيل عن أمهات الأنبياء الثلاثة مستعينة بمادة كان مصدرها الأصل والمطلق القرآن الكريم؛ أما تفاصيلها الجزئية فاستقتها من التواراة والإنجيل وبعض الإسرائليات عن (إسماعيل وموسى وعيسى) إلا أنّ السرد القصصي التاريخي لسيرة أم الرسول عليه الصلاة والسلام، بنته بنت الشاطيء على سيرة النبي المصطفى بما له علاقة بنسبه وموطنه ويتمه وأخلاقه وأحواله وأحاديثه ووصاياه.

تقول: " فهذا الحديث عن آمنة بنت وهب يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح، وما نقلت إليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل في أصلابهم جيلا بعد جيل، وما حملته إليه من خصائص الأرومات الأولى التي اعتز بالانتساب إليها في مثل قوله عليه الصلاة والسلام، إنّ الله اختاره من كنانة،

---

[1]- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص153.

[2]- المصدر نفسه، ص50.

واختار كنانة من قريش، واختار قريشا من العرب، فهو خيار من خيار من خيار. أو قوله: "أنا ابن العواتك من سليم"([1]) .

ونعتقد أنّ عائشة عبد الرحمن سردت سيرة أم النبي فجاءت بتفاصيل لم تكن مرتبة ومسترسلة في كتب السيرة والأخبار والتاريخ؛ لقد أضافت بمتخيلها ما كان يتوقعه القارئ في سدّ فجوات الأحداث لتدفق الأحاسيس واتساع التصورات في هذه السيرة وهي الطريقة نفسها التي سلكها بودلي في عرضه لسيرة الرسول صلى الله عليه السلام إذ يصرح أن هذه السيرة أغنى بأبعادها وتفاصيلها مما جاء في كتب السيرة " فالمواد التي في هذه الصفحات أغنى منها في كثير من كتب السيرة."([2])

ففي سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض، ونعرف الشيء الكثير عن محمد كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا في أزمان أكثر قربا من زماننا، وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات."([3])

2- أثر المكان وظلاله عند بودلي في قصة أم النبي لعائشة عبد الرحمن:

بدأ بودلي عرض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في الفصل الأول من كتابه بتوصيف المكان الذي كان مبعثا لنبوته ورسالته؛ وهذا المكان هو مكة المكرمة التي أسبغ عليها أوصافا هي نفسها الأوصاف التي أسبغها عليها علماء التاريخ والجغرافية وعلماء السيرة والأديان؛ ولكن بتفاصيل جزئية متباينة بحسب السياقات المرجعية والذاتية والدينية ومن ذلك ما قاله بودلي:" تقع مكة- حاضرة الإسلام المقدسة- في منتصف الطريق بين اليمن وسوريا، في

---

[1]- تخريج الحديث* ابن العواتك: وعن عمرو بن سعيد بن العاص عن سيابة بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم حنين: (أنا بن العواتك من سليم) الصحيحة 1569 أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 6724. ينظر: المصدر نفسه، ص13

[2]- بودلي، الرسول.. حياة محمد، ص 9.

[3]- المصدر نفسه، ص10.

قلب صحراء العرب، وتقع في واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها، وكأنما الطبيعة قد تآزرت والمسلمون على حماية هذه البقعة الطاهرة وكتم أسرارها.

وليست مكة بالرقعة التي تستهوي الأفئدة، ولا يحس الغريب النازل بها مودة من أهلها، وإنها لتقع بين تلال صخرية سوداء ذات أطوال متساوية، تمتد لأميال عدة، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لهذه التلال الجرداء ، ولا لهذه الصحراء المترامية التي يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافتة فحصاها وصخورها الصماء تبعث إلى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق يصعد إلى السماء دخانه."([1])

ألمح بودلي في هذا التوصيف إلى ما هو مذكور في القرآن الكريم ؛كما أشار إلى ما أصبح عليه هذا المكان بقوله: "حاضرة الإسلام ([2])المقدسة والبقعة الطاهرة ". هذا المكان الذي لم يكن نافعا وأصبح نافعا؛ ولم يكن واسعا ومنفتحا وأصبح ممتدا ومتصلا بأماكن أخرى في كل بقاع الأرض مصداقا لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.سورة إبراهيم الآية 37.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ سورة الحج الآيات (26-27-28-29).

---

[1]- المصدر نفسه، ص21. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ-1977م، المجلد الأول، ص 35 وما بعدها. وينظر أيضا: عائشة عبد الرحمن ، أم النبي ، ص66.

[2]- ينظر: السهيلي، الروض الأنف، ج1، ص30.

أحس بودلي في أثناء توصيفه للمكان بخصوصية هذه البقعة فيما ضمته بين أعطافها من أحوال التغيير والتنوير والقيم والخلود والقوة والنقاء والاستمرار، بما جُبلت عليه فطرة الإنسان السوي المتوازن؛ على الرغم من صلابتها ووحشتها؛ ولكنه في الوقت نفسه أبغض المكان بملامحه وأوصافه الجغرافية والمرئية، ووجدت عائشة عبد الرحمن في وصف بودلي للمكان متسعا في إنشاء إيحاءاته وظلاله وتصويره واستدعائه بالوجدان وبالبصر إلى درجة إدراج وصف بودلي كما هو عليه دون تصرّف في كتابها؛ فعن وحشة المكان تقول نقلا عن بودلي:" وإذا ما استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة، بدت معالم الحياة كأنما جمدت في تلك الفلاة، فالوحشة تامة، والسكون مسيطر، ولا يصك أذنيك إلا صفير الريح الصرصر العاتية...

" وحتى السراب الذي يخدع المسافر فيجعله يأمل في النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة، لا وجود له، فلا نخيل هناك، ولا حدائق توحي بالتفكير فيها وتمنيها، فما من شيء ينبت في بلدة الرسول المقدسة، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية"([1]).

استغنت عائشة عبد الرحمن في وصفها للمكان عمّا هو مذكور في معجمات البلدان واكتفت بما ذكره بودلي ولكنها لم تستغن عن ارتباط وجدانها به لتنهي حديثها عنه بكماله هذا المكان الذي يبدو للعيان موحشا، ويبدو لمحبيه مستأنسا وملتجأ ومنتجعا وملاذا وسكينة؛ يلخص هذا الأمر قولها في الأخير:" أجل هي مكة، بلد "آمنة " ومهد ولدها الوحيد، ومثابة آبائه وأجداده، ودار مبعثه، وقبلة الذين آمنوا به أمسِ واليوم وغدا وإلى الأبد..." ([2])

---

[1]- عائشة عبد الرحمن، أم النبي ، ص 66. ينظر: بودلي، الرسول ..حياة محمد، ص21-22.

[2]- المصدر نفسه، ص66.

هكذا تصبح مكة في ما انفردت به بنت الشاطئ في توصيفها للمكان بنسبته لأم النبي الحاضنة والأم التي أنجبت الرسول المصطفى الذي أحب هذا المكان فتزكى المكان بحبه له، وشرف المكان بآمنة لما شرُفت هي بولدها....

3–غياب إرهاصات الخوارق والرؤى في كتاب الرسول ... حياة محمد وإثباتها في قصة أم النبي.

لم يؤمن بودلي بدلائل نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام التي أثبتتها كتب السير والتاريخ قبل وبعد مولده؛ انطلق من منهجه الموضوعي الذي أتاح له إنكار تلك الدلائل بحسه الذاتي والعقلي إلى درجة إنه أعدّ السيرة التي كتبها عن النبي عليه الصلاة والسلام مما يمكن إسقاطه على أية شخصية عظيمة أخرى قائلا: " فإن سيرة محمد يمكن أن تكون أية شخصية فذة في التاريخ أو الرواية، فبها جميع عناصر الرواية والروعة الضرورية للقصة الطبية... وإن الفرق الوحيد بين قصة محمد المثيرة الناجحة وقصة أي شخص آخر هو توليد الحوادث؛ وإن هذا لمما يزيد في الشغف والروعة"([1])

وندرك من هنا أنه بنى كتابه على الحس الإنساني الذي يتلمس في السيرة النبوية بوقائعها وأخبارها بعيدا عن النبوءات والخوارق والمعجزات المرئية وغير المرئية مما ورد مفصلا في المصادر الإسلامية الأصلية؛ إذ لم يلتفت إلى تلك الأمور التي استوقفت علماء السيرة كثيرا ومرّ عليها مرورا باهتا؛ فها هو يقول في أثناء حديثه عن طفولة محمد " لا توجد أسرار تحيط مولد محمد إذا ما استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل؛ فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله؛ فما جارت الملائكة قبل مولده، ولا بشرتها بقدومه؛ فقد حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع."([2])

---

[1]- بودلي، الرسول ..حياة محمد، ص19-20.

[2]- المصدر نفسه، ص35.

ونتساءل لماذا وقف بودلي هذا الموقف من هذه الأسرار والخوارق والبشائر والرؤى؛ فهذا أثبتته كتب السيرة ولم تهمله؛ بل فصلت فيه كثيرا ولم يقع في هذا التفصيل خلاف، لقد كان جزءا من سيرته عليه الصلاة والسلام وبعدها، وأخباره كانت عالقة في ذاكرة كل من عايشه ورصد أخباره وتناقلها في هذه المرحلة مما لا سبيل إلى التزيد فيه أو عليه؛ أو إنكاره أو إنقاص شيء منه؛ فسيرته صلى الله عليه وسلم" وصلت إلينا ... بدءا من ولادته إلى طفولته، فصبوته اليافعة إلى الإرهاصات الخارقة التي صاحبت مراحل طفولته وشبابه إلى بعثته ظاهرة الوحي التي تجلت في حياته؛ إلى أخلاقه وصدقه وأمانته؛ إلى الخوارق والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يده..."([1])

لم يكن بودلي وحده الذي أنكر الخوارق والمعجزات في عرض سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فهناك كثيرون سلكوا مسلكهم، ومنهم محمد حسين هيكل الذي برّر هذا المسلك بقوله:" ...وهداني تفكيري آخر الأمر إلى دراسة محمد صاحب الرسالة الإسلامية؛ وهدف مطاعن المسيحية من ناحية؛ وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة؛ خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده."([2])

لم يرتكز محمد حسين هيكل فكرته على دلائل النبوة؛ فاكتفى هو أيضا بمظاهر الرسالة ووقائعها وأحداثها؛ ولذلك وجدنا عائشة عبد الرحمن، لا تندهش كثيرا لفكرة محمد حسين هيكل([3])؛ كما اندهشت للموقف الذي صدر من بودلي إذ تقول:" وإني ليدهشني أن يصدر هذا الحكم من رجل مثل بودلي أعرف فيه الاعتدال والحرص على أمانة التاريخ وسلامة المنهج، لقد قرّر أنّ محمدا حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع؛ فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى من البشر تحمل وتضع في مثل ظروف آمنة... لو أن

---

[1]- البوطي، فقه السيرة، ص23.

[2]- محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص69.

[3]- عائشة عبد الرحن ، أم النبي، ص116

بودلي استفتى علماء النفس، لأنكروا عليه أن يسمي أحلام آمنة خرافات وإنما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأماني أمومتها... " ([1]).

لقد قطعت عائشة كثيرا من أحداث سردها وهي تحاكم بعض الأفكار والعروض غير المؤسسة لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في كتاب بودلي وكذا ما جاء عند بعض المستشرقين ووغيرهم من العرب المتأثرين بمناهجهم مما جعل البناء الفني في قصتها مهتزا لا ينسجم مع العروض القصصية بعناصرها الفنية المتبعة ؛ وعلى الرغم من ذلك فإن ردودها فتحت إشكالات كثيرة؛ لقراءة السيرة وتعزيز عروضها بالأحاسيس الصادقة المرتكزة على صحة الرواية والخبر.

لم يكن حمل آمنة بمحمد عليه الصلاة والسلام شيئا عاديا مألوفا ينسحب بالصورة نفسها على كل النساء؛ وهذا ما أثبتته بنت الشاطئ مستندة إلى كتب السيرة في العنصر الرابع " الذي أسمته "البشرى" الوارد في المبحث الثالث الموسوم " زهرة قريش "إذ صدّرت سردها بنص موثّق يخبرنا عن آمنة " ... التي سمعت هاتفا يهتف بها في رؤياها، إنّك قد حملت سيد هذه الأمة".([2])

" لقد رأت آمنة كأنّ شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضيء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام"([3]).

وفي ليلة خالدة جاءها المخاض " في أوان السحر من ليلة الاثنين، وهي وحيدة في منزلها... فأحست بما يشبه الخوف؛ لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ثم بدا لها كأن جمعا

---

[1]- المصدر نفسه، ص 117.

[2]- ابن إسحاق، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية،1424هـ-2004م) ، ج1، ص97.

[3]- عائشة عبد الرحمن ، أم النبي ، ص97.

من النساء يحيطن بمضجعها ويحنون عليها؛ فحسبتهن من بنات هاشم؛ وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد.."([1]).

في هذه الليلة الخالدة التي وصفتها عائشة عبد الرحمن بأحاسيسها ودلائلها في المبحث الخامس الموسوم " أم اليتيم" و في العنصر الثاني منه "الوليد" أثبتت بالأثر والخبر الصحيح ما حف بمولد النبي عليه الصلاة والسلام من خوارق إذ" ..انصدع الإيوان بالمدائن الكسروية، الذي رفع أنو شروان سَمكه وسواه. وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية، وكُسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه. وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية، لطلوع بدره المنير ومُحيّاه.."([2])

وتنتقل عائشة عبد الرحمن في كل مبحث من هذه السيرة وكل عنصر من عناصر هذه المباحث ساردة متفننة ومدافعة عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ متوسلة بأمانة التوثيق وحرفية النصوص لتصل إلى العنصر الرابع من المبحث الخامس إلى إثبات حادثة شق الصدر التي لا يمكن دفعها أو ردها وهي بمعاينة من كان في بادية بني سعد التي احتضنت الوليد؛ فأينع في جوها خطىً ولغة وجسماً؛ وليس من عادات هؤلاء أن ينسجوا الأخبار ويتزايدوا فيها؛ وهم أهل فطرة وسماحة وصفاء فتقول على لسان أخيه في الرضاعة:" ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهما يسوطانه؛ فخرجت انا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه. فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بُني؟

قال: جاءني رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني، فالتمسا شيئا لا أدري ما هو.. فرجعنا به إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون الغلام قد أُصيب، فألحقيه بأهله قبل ان يظهر ذلك به.

---

[1]- المصدر نفسه، ص 128.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص130.

فاحتملناه فقدمنا به... والله إنا لا نرده غلا على جدع أنفنا".([1])

لم يكن حديث عائشة عبد الرحمن عن الخوارق والرؤى والمعجزات في قصة أم النبي أمراً مقصوداً لذاته، وإنّما كان مطلباً سردياً في السيرة، استطاعت أن تتوقف عنده بين الحين والآخر، قاطعة سردها لترد على بودلي، وتدفع إنكاره لهذه الخوارق متوسلة بأدوات علمية ومعرفية ودينية، فعّلتها بأحاسيسها التي انتقلت بها من حالة التوصيف القصصي إلى حالة الإدراك العقلي.

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى القول إنّ كتاب الرسول لبودلي حياة محمد الذي تجاوز فيه صاحبه حرفية الخبر ومرحلية التاريخ لينسج في ضوء ذلك سيرة الرسول بأبعادها الحية متسلسلة، بظلال سردية وفنية وبأبعاد رابطة بين الأحداث ما سمّاه" الرسول" متجاوزا في عنوانه مدرج الاعتقاد بالنبوة إلى الاعتقاد بالرسالة مقرراً بذلك مزايا الرسول وخصوصية ورسالته الإنسانية وعظمة شخصه، وأخلاقه وتعاليمه التي تلمسها وتحسسها في عصره، فصرّح بها في مقدمة كتابه منبهرا بحركية رسالة الإسلام وامتدادها وقوة الاعتقاد بها، فكان لمنهجه الموضوعي وطريقته في عروضه الفنية المشوقة وغير المتجاوزة في معظمها للنقول والأخبار الدقيقة، كان أثرا في قصة أم النبي لعائشة عبد الرحمن، بتفاصيلها وأحداثها وعباراتها في ماله علاقة بالمكان

[1]- عائشة عبد الرحمن، أم النبي، ص139 وينظر: سيرة ابن هشام، ج1، ص174

ومرجعيته الدينية والاجتماعية المتعلقة، بأصول الرسول عليه الصلاة والسلام وبنسبه ومولده وطفولته؛ لكن حديث بودلي المقتضب عن أم الرسول عليه الصلاة والسلام وتبعته عائشة عبد الرحمن بمتخياها الإبداعي وأضفت عليه تصويرا فنياً دقيقا؛ بمزيج من المشاعر الصادقة وبنصوص مؤسسة، فلم تنحرف في ذلك عن الروايات والأخبار الأصلية، كما أنها استطاعت أن تجعل الإقلال والتعسف عند بودلي في الحجر على رؤى أم الرسول وأحلامها، وأوصافها وكذا ماله علاقة بطفولة ابنها وحادثة شق الصدر وما رُصد يوم مولده من وقائع وعلامات النبوة؛ لتصبح هذه الصورة منطلقا للتأسيس الفني لصورة التي تهيأت لها، وهذه الصورة من دلائل النبوات في قصص الأنبياء إسماعيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وماكانت أمومة آمنة في حجم زمانها ومكانها وأحاسيسها وأحلامها ورؤاها إلا واقعا ووجودا، وانبلجت عنها نبوة محمد ورسالته التي منبعها الفطرة ومنتهاها الهدى والحق والعقل واليقين والإحساس.

قائمة المصادر والمراجع:

1-أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، (القاهرة، دار النهضة، د.ت)

2-ابن إسحاق، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية،1424هـ-2004م).

3-بودلي؛ كتاب الرسول: حياة محمد؛ ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار؛ دار الكتاب العربي - مصر؛ ط1، 1945.

4-أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء، دار التقوى، القاهرة، 1440هـ-2019م

5-جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام (بغداد، 1963م)

6-سعدون الساموك ، الاستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية، (عمان، دار المناهج،1431هـ-2010م)، ط1.

7-سهيل قاشا: الاستشراق، سلسلة كتب الثقافة المقارنة، ج2 بغداد 1987

8-عرفان عبد الحميد، دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، (عمان، دار عمار،1991)

9-عائشة عبد الرحمن ، تراثنا بين ماضٍ وحاضر، (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية، 1968م).

10-عائشة عبد الرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، المقدمة، ط1، دار الريان، 1407هـ-1987م، القاهرة.

11-عصام فخري برتو، الرسول في كتابات المستشرقين(دراسات استشراقية)، ع05، 2015م .

12-محمد حسين هيكل، حياة محمد، ط14، دار المعارف، مصر، القاهرة.

13-محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، ط 1979

14-ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ-1977م،

المقالات والرسائل الجامعية:

15-محسن راشد طريم، الجوانب المظلمة في كتابات المستشرقين البريطانين في السيرة النبوية، مجلة جامعة ذي قار، ع2، المجلد 4، أيلول 2008م

16-الغزال، مشتاق بشير حمود، تطور الاستشراق البريطاني كتابة السير النبوية الشريفة، رسالة ماجستير(غير منشور)، كلية التربية، جامعة بغداد، 2001م.